

## تعامل النبى ﷺ مع المخالفين المحاربين

الشيخ محمد بن إبراهيم الحمد

الرحمة جانب عظيم من جوانب شخصية النبى صلى الله عليه وسلم وصورة لنفسه الكريمة، فالبر إمامه، والرحمة محيطه به سواء كان ذلك في حال يسره أو عسره، أو كان مع موافقيه أو مخالفه، وهو الذى يقول: "من لا يرحم لا يرحم" (أخرجه البخاري: ٥٩٩٧، ومسلم: ٢٣١٩) ويقول: "من لا يرحم الناس لا يرحمه الله" (أخرجه البخاري: ٦٠١٣، ومسلم: ٢٣١٩) ويقول: "الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء" (أخرجه أحمد: ١٦ / ٢، وأبوداود: ٤٩٤١، والترمذي: ١٩٢٤) وإذا تتبع سيرته - عليه الصلاة والسلام - وجدت أنه يعامل الناس بمقتضى تلك الرحمة، ويتضح ذلك من خلال النظر في طوائف الناس أمامه - عليه الصلاة والسلام - .

فطوائفهم لا تخرج عن أربع:

١ - طائفة المهتدين المؤمنين      ٢ - طائفة المنافقين

٣ - طائفة المخالفين المسالمين      ٤ - طائفة المخالفين المحاربين

وفي السطور التالية نتحدث عن تعامله صلى الله عليه وسلم مع هذه الطائفة الأخيرة:

طائفة المخالفين المحاربين: فهؤلاء يخرج لهم - عليه الصلاة والسلام - في مظهر الحزم والاحتباس، ويدفعهم بالتى هي أحكم وأعدل، فيرفق بهم إن كان هناك موضع للرفق، ويأخذ فيهم بسنة الحزم إن طغى بهم الشر، فلم يكن الرفق ليزيدهم إلا تمرداً.<sup>(١)</sup>

فإذا أذن - صلوات الله عليه - بقتل كعب بن الأشرف، فلأن كعباً هذا كان شاعراً، وكان يهجو رسول الله، ويحرض عليه كفار قريش، ويفعل بعد هذا شيئاً

<sup>(١)</sup> انظر محمد رسول الله وخاتم النبيين ص ١٠٣.

وهو أشد على قلوب العرب من وقع السهام النافذة، وهو أنه كان يشيب بنساء المسلمين.

وقد احتمل منه النبي - عليه الصلاة والسلام - هذا الأذى حيناً، ولما أبى كعب أن ينزع عن إثارة هذه الفتن أذن لأحد الأنصار في قتله، ليميط عن سبيل الدعوة إلى الله حية تسعى، ويدفع عن أعراض المسلمين شعراً مقذعاً.

ومن ذا يجهل أن محمداً ﷺ قد أفاض على العالم حكمة وهداية وإصلاحاً، وما الحسام الذي يأمر بانتزاعه إلا كمبضع طبيب ناصح يشرط به جسم العليل، لينزف دمه الفاسد حرصاً على صحته وسلامته.

ومن تقصى السيرة النبوية وجد فيها ما يصدق قول عائشة - رضي الله عنها - :  
 "ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله، فينتقم لله".<sup>(١)</sup>

فمحمّد - عليه الصلاة والسلام - لم يقاتل الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون حرصاً على حياته، وإنما كان يقاتلهم حرصاً على حياة الفضيلة، وظهور الحق، وبسط أنوار التوحيد، وإقامة نظم المدنية المهدبة، ولكن الناشئين على اللهو واتباع الشهوات لا يفقهون.<sup>(٢)</sup>

فما الذي كان يريده المفترّون على محمد ﷺ أن يفعل بعد ما ألح عليه العدوان هكذا، حتى كاد يأتي عليه.

إن الدنيا لتعرف كيف تكتل الكفار ضده في شعب أبي طالب ذلك الحصار الاقتصادي والسياسي والاجتماعي المشهور الذي أنزل بمحمد وصحبه وبعض قرابته من الضر ما آذاهم حتى أكل بعضهم يوماً من الجوع أوراق الشجر.

ولولا أن الله عطّف عليه قلوب بعض الكرام لبلغ الكفار مرادهم، مما أكره الرسول ﷺ على الإذن لصحبه بالهجرة الكبرى إلى المدينة.

<sup>(١)</sup> أخرجه الحاكم في مستدركه (٤٢٢٣) وأحمد في مسنده (٢٥٠٢٩).

<sup>(٢)</sup> انظر حقائق الأنوار: ١ / ٤٤ و ٢ / ٥٠٩، ومحمد رسول الله وخاتم النبيين ص ١٠٤، ومحمد رسول الله لمحمد رضا ص ٢٣٠.

ثم أدركهم بعدها صبيحة الليلة التي جمع الكفار فيها من كل قبيلة فتى، وقرروا أن ينهوا حياته بالسيف، حتى يضيع في القبائل دمه، وما تقوى على حريمهم قريش.

فأي صبر كانوا ينتظرون من الرسول ﷺ فوق هذا الصبر؟ وكيف تكون المواجهة بعد هذا سبيل التفاهم من أناس رفعوا عليه السيف، ولم يحمه منه أحد غير رعاية الله له؟

إن صبر محمد ﷺ على قومه حتى هذا المدى لهو آية الآيات على عظمة التسامح والمسامحة عند محمد، وإرخائه العنان لقوم لم يكونوا يستحقون سوى الكبريت والحطب.

لقد سأل محمد المشركين، وجاوز حدود الصبر، فما أجدت المسامحة، ولا أفاد الصبر، وأصبح الاستمرار عليهما مما لا يتفق ومنطق الحياة، ومما لا يتفق - كذلك - ومنطق النبي الذي جاء قويا كفرسان العرب، عظيما في حسبه ونسبه وفضائله، والذي جاء قبل هذا ليكون رسول حياة يخاطب أهلها بما يفهمون.

إن لقيه الناس بالإحسان فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟ وإن كانت الأخرى فدين محمد فيه ترياق السموم، وقرع الحديد بالفضولاذ.

ومن عجب أن ما اتخذه محمد - صلوات الله عليه - سلوكا لنفسه، وطريقا لحماية دعوته منذ القرون الطوال هو نفسه الطريق الذي أثرت البشرية دون غيره لضمان البقاء.

ولو خضع الناس، وأداروا خدودهم اليسرى لمن يصفعهم على اليمنى لما قام على وجه الدنيا أحد في وجه ظالم، ولعاش الطغاة أعمارهم محفوفين بالإجلال والإعظام. ولو قال أصحاب محمد ﷺ مقالة أصحاب موسى: {أذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون} (المائدة: ٢٤) لما قُدر للحياة أن تقيد من أسرار هذا الدين العظيم الذي لا يوجد لمشكلات عالم اليوم من حلول أفضل مما فرضها لها دين محمد ﷺ! (١)

(١) انظر مقال نبي الملحمة للأستاذ عبد الصبور مرزوق في كتاب محمد رسول الله لأحمد تيمور باشا ص

وإذا جنح - عليه الصلاة والسلام - إلى خيار الحرب، فهل يعني ذلك أن يتجرد من الرحمة، ويكون هدفه الأول والأخير سفك الدماء دون مراعاة لعهد أو حرمة؟ لا، إن الحرب في شريعة رسول الله ﷺ لها آداب، وأحكام محفوفة بالرفق، والرحمة.

فمن الرفق الذي أقام عليه الإسلام سياسته الحربية أنه منع من التعرض بالأذى لمن لم ينصبوا أنفسهم للقتال كالرهبان، والفلاحين، والنساء، والأطفال، والشيخ الهرم، والأجير، والمعتوه، والأعمى، والزمن. ومن الفقهاء من لا يجيز قتل الأعمى، والزمن ولو كانا ذوي رأي في الحرب وتدير.

ولا يجوز قتل النساء وإن استعملن لحراسة الحصون أو رمين بنحو الحجارة، ودليل هذا قوله تعالى - {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يِقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا} (البقرة: ١٩٠) فجعل القتال في مقابلة القتال.

ونبه النبي ﷺ على أن من لا يقاتل لا يقتل، حين وجد امرأة في بعض الغزوات قتيلة، فأنكر ذلك، وقال: "ما كانت هذه لتقاتل!"<sup>(١)</sup>

وإذا وضع المحاربون الأطفال والنساء أمامهم، وجب الكف عن قتالهم، إلا أن يتخذوا ذلك ذريعة للنصر علينا، ونخشى أن تكون دائرة السوء على جندنا. ولا يجيز الإسلام التمثيل بالمحارب، قال ﷺ: "ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدا"<sup>(٢)</sup>. وخرج أبوداود وابن ماجه من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: "أعف الناس قتيلا أهل الإيمان"<sup>(٣)</sup>.

ويمنع من حمل الرؤوس من بلد إلى بلد، أو حملها إلى الولاة، وقد أنكر أبوبكر الصديق رضي الله عنه هذا، فقد روى البيهقي عن عقبة بن عامر الجهني أن عمرو ابن العاص، وشرحبيل بن حسنة بعثا عقبة بريدا إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه

(١) أخرجه أبوداود في سننه (٢٦٦٩) وابن حبان في صحيحه (٤٧٩١).

(٢) رواه مسلم (١٧٣١).

(٣) أبوداود (٢٦٦٦) وابن ماجه (٢٦٨١).

برأس ينان بطريق الشام، فلما قدم على أبي بكر أنكر ذلك، فقال له عقبة: يا خليفة رسول الله فإنهم يصنعون ذلك بنا.

قال أبو بكر: تأسيا أو استتانا بفارس والروم؟  
لا يحمل إليّ برأس، وإنما يكفي الكتاب والخبر.<sup>(١)</sup>

وأخرج أحمد وأبوداود من حديث عمران بن حصين وسمرة بن جندب أن النبي ﷺ كان ينهى عن المثلة.<sup>(٢)</sup>

والمثلة: تعذيب المقتول بقطع أعضائه، وتشويه خلقه قبل أن يُقتل أو بعده، وذلك كأن يجدع أنفه، أو تصلم أذنه، أو تفقأ عينه، وما أشبه ذلك من أعضائه.<sup>(٣)</sup>  
ولم يشرع الإسلام للأسير حكما واحدا، بل جعل أمره موكولا إلى الأمير الذي يقدر مصلحة الحرب، وله أن يخلي سبيله بفداء، أو بغير فداء.

ومن أدب الحرب في الإسلام الوفاء بتأمين المحارب، فإذا أعطى أحد الجند الأمان لأحد المحاربين - وجب احترام هذا التأمين، ولا يجوز لأحد أن يتعرض لذلك المحارب بأذى.

وإلى هذا يشير قوله - صلوات الله عليه - : "ويسعى بذمتهم أدناهم".<sup>(٤)</sup>  
وقد أمضى النبي ﷺ تأمين أم هانئ بنت أبي طالب لرجل من المشركين، وقال لها: "قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ".<sup>(٥)</sup>

وحدث في عهد عمر بن الخطاب أن عبداً أمن أهل بلد بالعراق، فكتب قائد الجيش وهو أبو عبيدة إلى عمر يأخذ رأيه في هذا التأمين، فكتب إليه عمر: "إن الله عظم الوفاء، فلا تكونون أوفياء حتى تفوا، فوفوا لهم، وانصرفوا عنهم".<sup>(٦)</sup>

<sup>(١)</sup> سنن البيهقي ٩ / ١٣٢، قال في تلخيص الحبير ٤ / ٢٨٨: "إسناده صحيح".

<sup>(٢)</sup> المسند ٤ / ٤٣٩ و ٤٤٠ و ٤٦٠، وأبوداود (٢٦٦٧).

<sup>(٣)</sup> انظر جامع العلوم والحكم لابن رجب (١ / ٣٩٠ - ٣٩٢).

<sup>(٤)</sup> أخرجه الحاكم في مستدركه (٢٦٢٣) وأخرجه أبوداود في سننه (٤٥٣٠).

<sup>(٥)</sup> أخرجه البخاري (٣٥٠ و ٣٠٠٠ و ٥٨٠٦) ومسلم (٣٣٦).

<sup>(٦)</sup> تاريخ الطبري ٣ / ١٨٨.

ومن آداب الحرب في الإسلام، ومما يُجلى معنى الرفق والرحمة مجاملة رسل العدو، وترك التعرض لهم بأذى، فقد يأتي رسول العدو في شأن الصلح أو غيره مما فيه تخفيف شر الحرب، فمن حسن الرأي أن لا يتعرض للرسول بأذى، وأن يكونوا في أمن حتى يعودوا إلى قومهم، فإن التعرض لهم بأذى يقطع صلة الرسالة بين الفريقين، ويسد طريق المفاوضات التي يُتوسَّل بها إلى عدم الدخول في الحرب، أو إنهاؤها إذا كانت ناشئة.

ومكارم الأخلاق تأبى أن يُتعرض لرسول بأذى ولو أرسله قومه لإبلاغ ما عزموا عليه من محاربتنا، أو صدر منه كلام في تعظيم أمر قومه بقصد الفخر أو الإرهاب. وقد جرى نظام الإسلام في الحرب على هذا الأدب المقبول.<sup>(١)</sup>

قدم أبو رافع بكتاب من قريش إلى رسول الله ﷺ فلما رأى رسول الله ألقى في قلبه الإسلام، فقال: يا رسول الله! إني - والله - لا أرجع إليهم أبداً، فقال رسول الله ﷺ: "أما أني لا أخيس بالعهد، ولا أحبس البرد، ولكن أرجع فإن كان في قلبك الذي في قلبك الآن، فارجع".

قال: فرجعت، ثم أقبلت إلى رسول الله ﷺ، وأسلمت.<sup>(٢)</sup> هذه نبذة من خلق الرحمة التي كانت تصاحب النبي ﷺ في حروبه، تلك الرحمة التي غيرت نظرة الناس من بعده للحرب، إذ نظرتهم تعني أن مبدأ الشفقة مناقض للحرب التي تعني الكلوح، والعبوس، والقسوة بكل حال.

وبخاصة ما نراه اليوم من حروب هذا العصر التي تأكل الأخضر واليابس، وتتسم بالوحشية، ولا تعرف الرحمة لا في أثنائها ولا بعد نهايتها. غير أن الناظر في تاريخنا المجيد، وسيرة نبينا الأعظم يجد هذا المعنى لاثماً واضحاً - كما مر - ويراها - كذلك - بعد نصره ﷺ، وتمكنه من الأعداء الذين ناصبوه العداوة، ولم يدعوا طريقاً في سبيل إيذائه إلا وسلوكه.

<sup>(١)</sup> انظر رسائل الإصلاح ١ / ١١٧ - ١١٨، وآداب الحرب في الإسلام للشيخ محمد الخضر حسين ص ٤٥.

<sup>(٢)</sup> أخرجه الحاكم في مستدركه (٦٥٣٨) أبوداود في سننه (٢٧٥٨) وأحمد في مسنده (٢٣٩٠٨).

وإذا أردت مثالا يثبت فؤادك فانظر إلى ما كان منه - عليه الصلاة والسلام - يوم فتح مكة الذي حصل بعد صراع مرير، وبعد أن فعلت قريش بالنبي ﷺ وأصحابه ما فعلوا.

فعندما انتصر عليهم، وأحاط بهم إحاطة السوار بالمعصم، وظنت قريش الظنون، لعلمهم بسوء صنيعهم السابق، وحسبوا أنه سيدخل مكة دخول الجبابرة والطفاة مزهوا منتقما - فاجأهم بأن جاء متواضعا متخشعا لربه، غير مزهو بنصره، ولا شامت بأعدائه.

وعندما رأى قريشا وهم يتوقعون الإجهاز عليهم، ورأى جموع الصحابة وعيونهم تتلمظ تلمظ الحيات وهم ينتظرون أدنى إشارة منه أشار النبي ﷺ حتى يبيدوا خضراء قريش - قال النبي - عليه الصلاة والسلام - مخاطبا قريشا: "ما تظنون أنني فاعل بكم؟"

قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم.

قال: "فاذهبوا فأنتم الطلقاء".<sup>(١)</sup>

ولقد كان لتحلي المسلمين بأدب الحرب من الرحمة والسماحة أثر بالغ في نفوس كثير من أعدائهم، حيث أعجبوا بدين الإسلام، ونبيّه، ورحمة أهله، وحسن معاملتهم. بل لقد وجدوا عدلا ورحمة لم يجدوها عند بني ملتهم، مما حدا بكثير منهم إلى الدخول في الإسلام، والحوادث في هذا السياق لا تكاد تحصى.<sup>(٢)</sup>

<sup>(١)</sup> انظر سنن البيهقي الكبرى ٩ / ١١٨، وفتح الباري لابن حجر ٨ / ١٨.

وما مضى من أحكام الحرب وآدابها إنما هو نزر يسير مجمل، أما تفاصيل ذلك، واستثناءاته وأحكامه فهي مبثوثة في التفاسير، وكتب الفقه، وشروح الحديث، والكتب التي أفردت في الحرب، والجهاد، وما إلى ذلك.

انظر المبسوط للسرخسي ١٠ / ٥، وشرح فتح القدير لابن الهمام ٤ / ٩٠، والمغني لابن قدامة ٩ / ٣٢٦، وروضة الطالبين للنووي ١٠ / ١٥٠، وآداب الحرب للشيخ محمد الخضر حسين، وقواعد الحرب في الشريعة الإسلامية للشيخ عواض الوذيان.

<sup>(٢)</sup> ومن الأمثلة على ذلك أن كثيرا من زعماء الصليبيين، وكثيرا من عامتهم الذين قطعوا الأرض لقطع رقاب المسلمين - ارتموا في أحضان الدعوة الإسلامية التي غامروا كل مغامراتهم للقضاء عليها منذ أول تعارف، ذلك هو أعجب آثار التسامح!

فقد أسلم في الحرب الصليبية الأولى ممن أسلم (رينود) أمير طوائف الجرمان واللمبارديين، وأسلم معه خلق كثير منهم.

وأسلم في الحرب الصليبية الثانية خلق كثير، كما يروي السير توماس عن راهب من رهبان سنت دنيس كان قسيساً في المعبد الخصوصي للملك لويس السابع، ورافقه في هذه الغزوة طائفة كبيرة، وإليكم ما يقوله الراهب في عبارة شائقة:

"وفي طريق الصليبيين إلى المقدس، عبر جبال الأناضول التقوا بجيش المسلمين، فهزم الصليبيون شر هزيمة.

وكان في الممر الجبلي (فريجيا) وذلك سنة ١١٤٨م، ولم يصلوا إلى مرسى (أضاليا) إلا بشق الأنفس، ومنها استطاع القادرون بعد تلبية طلبات التجار اليونانيين الباهظة أن يرحلوا إلى أنطاكية بحرا، وقد دفعوا مبالغ طائلة، وتركوا خلفهم الجرحى، والمرضى، والحجاج، فدفعت كذلك لويس خمس مائة مارك لليونانيين على أن يعنوا بهؤلاء الضعفاء حتى يشفوا، وعلى أن يرافقهم حرس اليونان حتى يلحقوا بمن سبقهم، فما كان من اليونان الغادرين إلا أن تريضوا حتى تباعد جيش الصليبيين، واتصلوا بالمسلمين الأتراك، وأخبروهم بما عليه الحجاج والجرحى، ممن تخلفوا من الوهن والعجز، ثم قعدوا ينظرون إلى إخوانهم في الدين ينال منهم البؤس، والمرض، وسهام المسلمين.

ولما ضاق الصليبيون المتخلفون ذرعا بما أصابهم خرج ثلاثة آلاف أو أربعة من قلعهم محاولين النجاة بأنفسهم، فحصرهم المسلمون، وشدوا عليهم، ثم حملوا على المعسكرات الصليبية، وكان حال من خرج ومن بقي في المعسكر ليس فيه أقل رجاء، ولم ينقذوا إلا بما نزل في قلوب المسلمين من الرحمة، حين اطلعوا على ما فيه عدوهم من بأساء، وما أصابهم من ضراء رقت قلوبهم، وذابت نفوسهم، رحمة لأعدائهم الصليبيين المساكين، فواسوا المريض، وأحسنوا للفقير، وأطعموا المسكين بسخاء وكرم، وبلغ من إحسانهم أن بعضهم استردّ بالشراء أو الحيلة أو القهر النقود الفرنساوية التي أخذها اليونان من الحجاج، وردها عليهم، ووزعها على المحتاجين من الصليبيين.

وقد كان الفرق واضحا بين معاملة هؤلاء الكفار - يقصد المسلمين - للحجاج المسيحيين، ومعاملة اليونان الذين سخرُوا إخوانهم في الدين، ونهبوا أموالهم وضربوهم.

كان الفرق عظيما لدرجة حملت الصليبيين على اعتناق دين الأعداء المنقذين، ومن غير أن يكرهوا أو يقهروا.

لقد فرّوا من إخوانهم في الدين الذين أساءوا إليهم، فلحق ثلاثة آلاف بالجيش الإسلامي بعد أن رجع عنهم ودخلوا في دينه.

لقد كانت الرحمة أشد قسوة من الخيانة!

لقد أعطاهم المسلمون الخبز وسلبوهم الإيمان، واحسرتاه!

لقد ارتدوا عن المسيحية من غير أن يجبر واحد منهم على ترك دينه.

ذلك ما يقوله الراهب!

ولقد بلغ تأثير الإعجاب بشجاعة صلاح الدين وفضائله في الصليبيين، أن كثيرا من أمرائهم وعامتهم المعجبين به ذهب بهم هذا الإعجاب إلى ترك دينهم وأهلهم، والدخول في الإسلام.



مثل ذلك ما فعل الزعيم الإنجليزي (روبرت سنت أليان) وكان ذلك قبل انتصار صلاح الدين في معركة حطين الفاصلة التي وقع فيها ملك القدس (جاي) أسيرا.

ويقول بعض مؤرخي النصارى: إن ستة من أمراء هذا الملك استولى عليهم الشيطان ليلة المعركة، فأسلموا، وانضموا إلى صفوف الأعداء دون أن يقهروا من أحد على ذلك. وقد وصل الأمر (بريمون الثالث) أمير طرابلس الشام أن اتفق مع صلاح الدين على أن يدعو قومه إلى الإسلام.

وحتى بعد صلاح الدين، لما قام الصليبيون بحريهم الثالثة انتقاما لسقوط بيت المقدس، وحاصروا عكا، وأصابتهم البأساء، وعضهم الجوع - فرّ كثير إلى صفوف المسلمين، فمنهم من آمن، ومنهم من رجع إلى قومه، ومنهم من استمر على نصرانيته، واختار البقاء وأن يقاتل في صفوف المسلمين. وفي هذا المعنى يقول السير (جون ما ندفيل) أحد المعاصرين للصليبيين: "كان بعض المسيحيين يرتدون عن دينهم، ويصيرون عربا، لفقرهم، أو غياوتهم، أو شقاوتهم". ولا ينتظر - بالطبع - من صليبي كالسير جون أن يفسر ما يسميه المسلمون بالهداية إلا بالغباوة والشقاوة.

والذي يعيننا من الأمر أن الفقراء والأغبياء والضالين الذين ذكرهم السير ما ندفيل دخلوا في الإسلام الذي جاؤوا لمحوه مختارين، واجتذبوا إليه بالدعوة والإرشاد لا القهر والاضطهاد، بل إن بعض المؤرخين المسيحيين المعاصرين للفتح الإسلامي واسترداد بيت المقدس، وبعد ذلك بكثير بعد انهيار دول الفرنجة في الشام كلها يشيرون إلى فرح النصارى بالتحرر من حكم الصليبيين.

ويقول السير توماس في هذا المعنى: "لقد سكنوا إلى الحكم الإسلامي وادعين مستبشرين، كما استمر الحكام المسلمون على عاداتهم القديمة من التسامح، وسعة الصدر لأهل الملل الأخرى". يقول الأستاذ عبد الرحمن عزام رحمه الله في كتابه (بطل الأبطال): "وإذا كان ما ذكرنا هو بعض الشواهد على انتشار الدعوة المحمدية بالحجة بين أشد خصومها المحاربين، وفي أحلك أيام الدولة الإسلامية أيام غارات الصليبيين والتتر - فإن لنا شاهدا آخر من بطريق خراسان في أعز أيام الدولة الأموية العربية، نختتم به هذا الفصل، يقول البطريق (يوساب الثالث) اليعقوبي في خطاب طويل بعث به لحبر زميل: "أين أبناؤك أيها الأب! أين هذا الشعب العظيم شعب مرو! لم تصبهم جائحة، ولا سقطوا لل سيف، ولا عذبوا بنار، وإنما أصابهم متاع الدنيا، فارتدوا عن دينهم، وقذفوا بأنفسهم كما يقذف المجانين في مهاوي الهلاك والكفر، فلم ينج من هذا السعير إلا قسيسان اثنان فرّا بنفسيهما من جحيم الكفر - أي الإسلام - واحسرتاه على الآلاف المؤلفة الذين حملوا اسم المسيحية وصفتها، ولم يقع منهم شهيد واحد، ولا ضحى واحد منهم لدينه!!

أين كذلك بيع كرمان، وكنائس فارس!

لم يكن قدوم شيطان، ولا ملك، ولا أمير، ولا أمر خليفة أو سلطان هو الذي قضى عليها.

لم يكن ساحرا موهوبا أوتي المنطق، وسلطة الشيطان على النفوس، ولكنه ساحر هز رأسه فقط، فخرت كنائس فارس كله على الأرض!

وإن تعجب بعد هذا كله فاعجب من صنيع كثير من الظالمين البعيدين كل البعد عن العدل، وحقائق التاريخ، ممن يصفون دين الإسلام ونبيه وأهله بالقسوة والهمجية، والتطرف والإرهاب إلى غير ذلك مما هو محض افتراء، ومحاولة للصد عن دين الإسلام. والحقيقة الماثلة للعيان تقول بأن الإسلام دين الرحمة، والرفق، والتسامح، فماذا فعل المسلمون حين انتصروا على خصومهم؟ هل تكبروا، وتسلطوا، واستبدوا؟ وهل انتهكوا الأعراض، وقتلوا الشيوخ، والنساء، والأطفال؟

ماذا فعل النبي ﷺ عندما انتصر على خصومه الذين كانوا يؤذونه أشد الأذى؟ ألم يكن يصفح عنهم؟ ويمنّ عليهم بالسبي والأموال؟

وماذا فعل المسلمون عندما انتصروا على كسرى وقيصر؟ هل خانوا وغدروا؟ هل تعرّضوا للنساء؟ وهل أساءوا للرهبان في الأديرة؟ وهل عاثوا في الأرض فسادا؟ وهل هدموا المنازل، وقطعوا الأشجار؟

وماذا فعل صلاح الدين لما انتصر على الصليبيين الذين فعلوا بالمسلمين الأفاعيل، ونكّلوا بهم أيما تنكيل؟ فماذا فعل بهم صلاح الدين لما انتصر عليهم؟ ألم يصفح عن قائدهم؟ ويعالجه؟ ويطلق سراحه؟

وماذا كانت أحوال أهل الذمة في بلاد المسلمين عبر العصور المتطاولة إلى يومنا هذا؟ ألم يكونوا ينعمون بالأمان، والعدل، والإحسان؟

ألم يجدوا من عدل المسلمين وإحسانهم ما لم يجدوه من بني جلدتهم؟

فهذه المواقف النبيلة وأمثالها كثير في تاريخ المسلمين، مما كان له أبلغ الأثر في محبة الناس للإسلام، والدخول فيه عن قناعة ويقين.

أفغير المسلمين يقوم بهذا؟ ألغرب يقدم مثل هذه النماذج؟

= أما العرب الذين آتاهم الله ملك الدنيا كما تعلم - فإنهم عندك كذلك - فلم يطعنوا في ديننا، ولا اعتدوا على بيعنا، بل بالعكس ضالعوا مع ديننا، وفضلوه على غيره، وأكرموا رهباننا وقساوستنا، واحترموا أوليانا، وأحسنوا الهبات إلى معابدنا، فلماذا - إذا - هجر أهل مرو نصرانياتهم زلفى لهؤلاء العرب، وهم يعلمون ويقولون: إن العرب ما طلبوا منهم تغيير دينهم، بل أقرّوهم عليه كاملا، ولم يسألوهم إلا ضريبة بسيطة يؤدونها عن أنفسهم، ولكنهم اشتروا خلود أرواحهم في دين المسيح بمتاع قليل؟

الجواب ما تراه، وتسمعه، فمن أين خرج هتلر، وموسوليني، ولينن، وستالين، ومجرمو الصرب؟ أليست أوروبا هي التي أخرجت هؤلاء وأمثالهم من الشياطين الذين قتلوا الملايين من البشر، ولاقت منهم البشرية الويلات إثر الويلات؟

ألا يعد أولئك هم طلائع حضارة أوروبا؟ فمن الهمج القساة العتاة إذا؟

ومن المتطرفون الإرهابيون حقيقة؟

ثم من الذين صنعوا القنابل النووية، والعنقودية، والذرية، والجرثومية، وأسلحة الدمار الشامل؟

ومن الذين لوثوا الهواء بالعوادم، والأنهار بالمبيدات؟

ومن الذين يسلكون الطرق القذرة التي لا تمت إلى العدل، ولا إلى شرف الخصومة بشيء؟

من الذين يعقّمون النساء؟ ويسرقون أموال الشعوب وحرّياتهم؟ ومن الذين ينشرون الإيدز؟

أليس الغرب، ومن يسير في ركابهم؟

ومن الذي يدعم اليهود وهم في قمة التسلط والإرهاب؟

وماذا حصل في محاكم التفتيش، وما أدراك ما محاكم التفتيش؟

وماذا حصل في بعض السجون كأبي غريب وغيره مما يندى له الجبين؟

هذه هي الحقيقة الواضحة، وهذا هو الإرهاب والتسلط.

ولا يعني ذلك بحال من الأحوال أن يكون غير المسلمين على سنة واحدة من الظلم والتسلط والجبروت، لا بل إن فيهم من هو قائم بالعدل، بعيد عن الظلم.

أما جهاد المسلمين لإحقاق الحق، وقمع الباطل، ودفاعهم عن دينهم، وأنفسهم وبلادهم فليس إرهاباً، وإنما هو العدل بعينه.

وما يحصل من بعض المسلمين من الخطأ في سلوك سبيل الحكمة فقليل لا يكاد يذكر بجانب وحشية الغرب، وتبعته تعود على من أخطأ السبيل، ولا تعود على الدين،

ولا على المسلمين، ولا يُقر عليها من قام بها، بل إن أهل الإسلام ينكرون مثل ذلك أشد الإنكار.

وهكذا ينبغي للعاقل المنصف، أن ينظر إلى الأمور كما هي بعيدا عن الظلم والتزوير والنظرة القاصرة.

وبعد هذا فإن كان للإنسان من عجب فإنه من الأوربيين، والأمريكان، حيث لم يكتشفوا حقيقة الدين الإسلامي وعظمة نبيه فيما اكتشفوه، وهو أجل من كل ما اكتشفوه، وأضمن للسعادة الحقيقية من كل ما وصلوا إليه، فهل هم جاهلون بحقيقة الإسلام حقا؟ أو أنهم يتعامون ويصدون عنه؟!

إن كانت الأولى، فهي مصيبة، وإن كانت الثانية فمصيبتان!



### المستشرق الأمريكي الكبير "وانشجتون ايرفنج":

"كانت تصرفات الرسول صلى الله عليه وسلم في أعقاب فتح مكة تدل على أنه نبي مرسل لا على أنه قائد مظفر فقد أبدى رحمة وشفقة على مواطنيه برغم أنه أصبح في مركز قوي، ولكنه توج نجاحه وانتصاره بالرحمة والعفو". (وانشجتون ايرفنج: حياة محمد، ص: ٧٢)